الفصل التاسع عشر

في مصر

«ويكون أن كل الرجال الذين جعلوا وجوههم
للدخول إلى مصر ليغتربوا هناك يموتون بالسيف والجوع والوباء»

أرميا: 42/ 17

في الوقت الذي كان فيه الأطفال يقومون بمحاولتهم المحزنة كان البابا اينوسنت يخطط لحملة مسلحة عظيمة أخرى إلى الأماكن المقدسة، غير أنه لم يعش طويلاً ليرى تحقيق خططه حيث مات في بيروجيا في 16 تموز 1216، وخلفه هونوريس الثالث الذي كرس نفسه لفكرة حملة صليبية جديدة مثل اينوسينت نفسه وقام بعمل كل شيء ممكن لإثارة الحماسة لدى العالم المسيحي الغربي، من أجل عمل عسكري ضخم آخر في الشرق، ومع ذلك سرعان ما اتضح عدم توقع مساعدة كبيرة جداً من فرنسا، حيث كانت الحرب ضد الهراطقة البيجنسيين لا تزال تشغل معظم الناس، ولحسن الحظ، فإن الاستجابة لنداء الحملة الصليبية في هنغاريا والنمسا كانت كافية لتؤلف رد فعل فاتر عند الفرنسيين، وحمل الملك الهنغاري الصليب، وحذا حذوه الدوق ليوبولد السادس في النمسا الذي وعد بالانضمام إلى الحملة الصليبية مع جيش ضخم عندما يحين الوقت، وكالعادة تبين أنه من الصعب إيجاد سفن كافية لنقل قوة الحملة الجديدة إلى وجهتها، كما رفضت كل من البندقية وجنوة وبيزا التي كانت ترتاب الواحدة بالأخرى للاشتراك في أية مغامرة لئلا تزحف إحداها خلسة على الأخرى أثناء ذلك، وأخيراً وجد ليوبولد وسيلة لنقله، ووصل إلى

الممالك الصليبية في أيلول 1217، وتبعه ملك هنغاريا اندرو مع قوة صغيرة في سفن قليلة رضيت القيام بنقله مع قوته إلى عكا، التي وصلها بعد وصول ليوبولد بفترة قصيرة، وانضم إليهما ملك قبرص هيغ بن ملك القدس املريك الثاني الذي خلف غوي الذي لم يكن له ابناء، وقد جلب هؤلاء الثلاثة معهم جيشاً صغيراً لم يتجاوز تعداده على الأرجح أكثر من خمسة آلاف رجل.

ولم يتأثر الإفرنج في الممالك الصليبية بقدومهم كثيراً، كما لم يسروا برؤيتهم بشكل خاص، فمنذ وفاة صلاح الدين انشغل المسلمون في شن الحروب أما بين بعضهم بعضاً، من أجل السيطرة على امبراطوريته، أو من أجل التجارة مع جيرانهم المسيحيين، ونتيجة لذلك ازدهر الجانبان بحيث كانا تواقين لعدم اهمال بركة هذا السلام، الذي نعما به لعدة سنوات مقابل أمجاد الحرب الفظيعة، ولذلك ذهل القادمون الجدد بشدة بمجرد فكرة العيش بسلام مع الكفار، وكانوا يتحرقون بشدة للخروج وقتل العديد منهم حالما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً كما دهش القادمون الجدد لحالة الغنى والترف التي تمتع بها الإفرنج في المماليك الصليبية، كشيء اعتيادي، وكذلك لملابسهم وعاداتهم الشرقية، وكان من غير المحتمل أن المسيحيين الذين اتخذوا الصليب، ونذروا أن يحروا الأماكن المقدسة من نير الكفرة قد أصبحوا فاسدين ومنحطين كثيراً إلى درجة أمكنتهم من العيش في خمول وانغماس في الفسق، جنباً إلى جنب مع أعداء الصليب، دون إبداء إشارة عداء ضدهم.

وليس ثمة شيء محير أكثر من محاولة تحليل العلاقات العائلية المتشابكة للبيوتات الملكية المتعددة في الممالك الصليبية، لأنها تعقدت إلى حد جعلت فيه الأشخاص في أجيال متعاقبة يأخذون نفس الأسماء والألقاب، وبذلك ففي كل فترة من تاريخ الحملات الصليبية تسمى الرجال بأسماء مثل هيغ وبوهمند وكونراد وبلدوين، وهؤلاء يبدو أنهم تزوجوا بنساء دعين بماريا أو اشيفا أو إيزابيلا أو أليس، وفي زمن الحملة الصليبية الخامسة كان ملك القدس رجلاً مسناً دعي جون أوف بريين، وكان قد تتوج بتاج الملك بفضل

زواجه قبل فترة سنوات من فتاة في السابعة عشرة، دعيت ماريا، كانت ملكة للقدس بحق وراثي بعد أمها الملكة إيزابيلا، التي أنجبتها من زواجها الثاني من كونراد أوف مونتفرات. وماتت هذه بعد فترة قصيرة من زواجها إلى جون عن عمر يناهز الحادية والعشرين، وبالتالي تولى جون وحدة مقاليد الحكم، وعندما وصل أندرو من هنغاريا وليوبولد من النمسا وهيغ من قبرص إلى أرض عكا، رحب جون بهم في الأراضي الصليبية، وفي الواقع كان هيغ ابن حميه المتبنى، حيث كان والده أملريك الثاني الزوج الرابع والأخير للملكة إيزابيلا، ونظراً إلى أنه لم يستطع أن يثنيهم عن الاندفاع إلى القيام بذبح قلة من المسلمين اقترح إنشاء حملة موحدة تحت إمرته باعتباره ملك القدس.

ورغم أن القادمين الجدد لم يكونوا كثيري العدد، بسبب أنهم لم يضطروا لترك عدد منهم وراءهم بسبب الحاجة إلى السفن التي جعلت رحلتهم طويلة من أوروبا، على كل حال كان الجيش الذي باشر القتال في خريف سنة 1217 تحت قيادة جون أوف بريين، فقد كان مروعاً أكثر من أي جيش حشده المسيحيون منذ أيام الحملة الصليبية الثالثة، وأما العادل أخو صلاح الدين، الذي كان قائداً لخصومهم، فقد تراجع أمامهم بشكل تكتيكي، وبعد أن خسر جيش جون فرصته في تحقيق معركة حاسمة، قام بتحقيق إنجاز بسيط، فقد انطلق دون أية فكرة معينة عما كان يجري هناك، كما كان عديم التنظيم بشكل تطلعت فيه كل فئة إلى قائدها، ولم تعط أية أهمية ولو قليلة لجون نفسه، وبعد الاستيلاء على مدينة بيسان ونهبها طاف الجيش في جهة الشمال حول بحيرة طبرية دون القيام بتحقيق أي شيء جديد، وعاد أخيراً إلى عكا، وكانت النتيجة الملموسة الوحيدة لتلك الحملة التي لا طائل تحتها، بصرف النظر عن خرق الهدنة القائمة بينهم وبين العادل، عبارة عن آنية خزفية كبيرة اعتقد أنها أحد الأربايق التي استعملت في الزواج في كانا في الجليل، عندما حول المسيح بأعجوبة ما فيها من ماء إلى خمر، وابتهج الملك أندرو بنيل هذا التذكار، فرحته كما لو أنه استولى على القدس نفسها.

وشنت غارتان أخريتان مخفقتان داخل أراضي المسلمين جرتا أثناء الشتاء، ولم تنجح إحداهما في تحقيق شيء جديد بانفاق الوقت لأجله، كما ضجر من الحياة في عكا ملك هنغاريا، وتلقى بترحاب أنباء إعداد بوهمند الرابع صاحب إنطاكية للزواج من الأخت غير الشقيقة لهيغ صاحب قبرص في طرابلس، وسعى بسرور للانضمام إلى حفل الزفاف الذي قام هناك، ولكن تلك المهرجانات توقفت فجأة بعد بدء السنة الجديدة بسبب موت هيغ المفاجئ وغير المتوقع، وكان ذلك جليلاً بالنسبة للملك اندرو، فعاد إلى عكا وجمع رجاله، وبعد أن رتب أموره مع سلطان سلاجقة الروم للعبور الآمن خلال أراضيه، قام بالمسير بهم في اتجاه الوطن مرة ثانية عبر الأناضول. بينما قرر ليوبولد البقاء في الأراضي الصليبية. وعلى الرغم من مساعدته للإفرنج، فإنهم لم يكونوا أقوياء بما فيه الكفاية للقيام بهجوم آخر على المسلمين، وأمضوا الشتاء في أعمال تقوية تعزيزاتهم في قيسارية بينما أقام رجال فرسان الداوية قلعة منيعة أخرى في عتليت على الساحل، حيث تستطيع حراسة طريق الحج الرئيسي، ولم يحدث شيء حتى وصول دفعة كبيرة أخرى من الصليبيين في شهري نيسان وأيار سنة 1218، وكان معظمهم من الألمان والهولنديين مع قلة من الاسكندنافيين وصلوا إلى أسطول من السفن الفريزية بحيث أمكن التخطيط لمغامرة عسكرية جديدة.

كانت مصر الهدف التالي بعد ذلك حيث كانت قلعة المسلمين، فإذا تم الاستيلاء عليها، فإن جميع مناطق فلسطين الجنوبية، بما فيها القدس ستسقط في أيدي المسيحيين دون أي قتال، وسيضطر اعداؤهم إلى الانسحاب إلى حصونهم في الشمال، في دمشق وحلب، وكانت خطة القتال تقضي بأن يتم الهجوم، والاستيلاء على ميناء دمياط في دلتا النيل، والانتظار هناك فيما بعد لقدوم الامدادات من أوروبا، حيث تم الاعتقاد بأن جيشاً كبيراً من الفرنسيين حشد هناك، فعندما تصل الامدادات سيقوم الجيش الصليبي بغزو جميع مناطق الدلتا والاستيلاء على القاهرة، في حين يسيطر أسطولهم على النيل. ووضع

ليوبولد صاحب النمسا والقادة الهنغاريون الذين لم يعودوا إلى الوطن مع الملك أندرو، وكذلك النبلاء الكبار في المنظمات العسكرية، وضعوا أنفسهم تحت أمرة جون أوف بريين لكونه ملك القدس، وجندياً قديماً خبيراً وممارساً، وفي عيد الصعود ركب الجيش السفن وأبحر خارج ميناء عكا.

وانقسم الاسطول خلال الرحلة، ووصلت بعض قطعه، إلى مصب بنهر النيل قبل يومين من بقية السفن، وفي 29 أيار، وبعد خمسة أيام من ابحارهم وصل جميع الأسطول ورسا بعيداً عن الشاطئ ونزل الجيش على الضفة الغربية من النيل، وكما حدث في أيام هجوم الملك أملريك على المدينة قبل خمسين سنة، نشرت سلاسل كبيرة عبر نهر النيل عند المدينة، لمنع السفن من الوصول إلى أسوار المدينة،ووضع خلفها جسر من الزوارق، وأقيم برج صغير معزز بقوة لحماية المكان كله فوق جزيرة على الضفة الغربية، وبعد أن تمت استعدادات الصليبيين هاجموا البرج، ولكنهم ردوا على أعقابهم عدة مرات حتى قاموا بشن هجوم بوساطة قلعة طافية بنوها فوق سفينتين مثبتتين معاً، وكانت هذه القلعة قد غطيت بصفائح من النحاس والجلود لحمايتها من الهجوم بالنار الاغريقية، أما في أعلاها فكان هناك جسر متحرك يمكن تحريكه إلى الأسفل ليصل إلى دفاعات العدو عندما تصطف السفن قريبة إلى أسوارها، وقد صمم هذه القلعة مدير مدرسة ألماني دعي أوليفر.

أصبح فيما بعد أحد المؤرخين الرئيسيين لهذه الحملة الصليبية، وقد أثبتت تلك الوسيلة فعاليتها التامة، ودافع المصريون عن البرج بعناد كبير، ورشقوا اعداءهم بألسنة من النيران حالما وصلوا ضمن مداها، وبعد قتال عنيف قام جنديان فلمنكيان بطعنهم من الخلف بحراب طويلة، ولي الجسر إلى الأسفل، واعتليا البرج إلى الأعلى، وكانا رجلين أمام العديد منهم، غير أنهما قاتلا المصريين بضراوة مرعبة بسيوف حديدية تشبه المنشار، قاتلاهم إلى درجة لم يتمكن أحد من الصمود أمامهما، وسرعان ما انضمت إليهما دفعة من الجنود الآخرين، وطرد المدافعون من أعلى البرج، وقد قاتلوا ببسالة لمنع

الصليبيين من هبوط درجات البرج إلى داخل القلعة، ولكن خسائرهم كانت بالغة واستسلمت عصبة منهم حين تركوا احياء، وحالما تم الاستيلاء على البرج سحبت السلسلة الضخمة المنشورة عبر النهر إلى الشاطئ، وأصبحت الطريق مفتوحة وواضحة بالنسبة للسفن الفريزية لتبحر مباشرة إلى أسوار دمياط.

وأفزعت أنباء الانتصار المسيحي العالم الإسلامي، حتى أن السلطان العادل، أخا صلاح الدين، الذي كان في أواسط الستينات، مات بتأثير الصدمة، وتوقع العالم الإسلامي كله سماع سقوط دمياط في أية لحظة، وبدا أن الله قد تخلى عن جنوده، ولكن الإفرنج قرروا عدم القيام بممارسة هجوم مباشر على المدينة، لعلمهم بقدوم الإمدادات في الطريق إليهم، ولم يرغبوا في المخاطرة في الصد بعد انتصارهم العظيم الأول لفترات سنوات، فإن الإخفاق سيسيء بشكل حاد إلى معنويات القوات، وبدا أن اتخاذ الحذر أفضل سياسة، وبالتأكيد أخطأ الصليبيون في قرارهم، فلو أنهم استولوا على المدينة، لربما استمروا في فتح جميع بلاد مصر، في حين كان أعداؤهم ما زالوا تحت تأثير صدمة هزيمتهم، ،غير مستعدين بعد لتلقي هجوم آخر، كما كانت المدينة في ذلك الوقت غير منيعة، لكنهم أضاعوا الفرصة ومر الوقت سدى.

وعندما قعدوا بدلاً من حصار المكان، قرر بعضهم إنهاء واجبهم، وبدأ سيل هزيل ولكنه متواصل من الرجال المغادرين مصر لشق طريق العودة إلى الوطن، في حين دب السأم والضجر بين أولئك الذين بقوا هناك، ومع مرور الأسابيع انتشرت إصابات بمرض الزحار في المعسكر، وأخذ المرض يشغل دوره المعتاد، ومع قدوم أمطار الشتاء أصبحت الحياة غير محتملة، بشكل متزايد، فهبطت معنويات الرجال، لكنها انتعشت بعد ذلك قليلاً، عندما وصل جيش بابوي جديد زاد صفوف المسيحيين ضخامة، ولكنه لسوء لحظ كان تحت إمرة رجل متعصب عنيد دُعي الكاردينال بيلاغيوس، الذي منحه البابا سلطات مطلقة ولم يمض وقت طويل قبل أن يتمكن من بذر الشقاق بين

الجميع، والنزاع مع الملك جون محدثاً انقساماً في الجيش، الذي تحول إلى حزبين متعاديين، وأصر على استلام قيادة العمليات العسكرية رغم عدم أهليته كرجل ديني، لكنه كان محظوظاً رغم افتقاره إلى الخبرة وعدم شعبيته المتزايدة بين القادة الآخرين، وعندما هاجم ابن أخ صلاح الدين السلطان الكامل معسكر الصليبيين أصيبت قوات المسلمين بخسائر فادحة، ويعود ذلك إلى يقظة جون أوف بريين، وبعد عيد الميلاد قرر بيلاغيوس إمكانية استعادة معنويات الرجال بالعمل، ولذا أصدر أوامره إليهم في شباط لمهاجمة قوات السلطان الذي كان يقاسي شتاء سيئاً مثل أعدائه، وقبل قيامهم بذلك وصلت أنباء فرار الكامل وجيشه فجأة، وبدون أنه سمع بإعداد مؤامرة ضده من قبل بعض الأمراء القادة، فاستسلم للفزع وانطلق بعيداً بحثاً عن الأمان، وعلى الفور احتل الصليبيون معسكره، واستولوا على غنائم كثيرة، وأتموا عزلة دمياط التي أصبحت في ذلك الوقت مقطوعة من جميع المؤن.

وما أن أكمل الكامل معالجة قضية المتآمرين حتى، كان مستعداً لاستئناف الهجوم ضد المسيحيين الذين كانوا متخذين موقفاً دفاعياً حسناً إلى حد بدا فيه أن قدر دمياط محتوم، أما من وجهة نظر المسلمين فقد بدا الأمر كما لو أن البحث عن السلام قد بدأ، وفي أثناء ذلك عندما استمر القتال، ومرت أيام الشتاء والربيع القصير الأجل، وسرعان ما حلت متاعب وأمراض صيف مصيري حار محل أيام البؤس والرطوبة، واستضاف الصليبيون في ذلك الوقت زائراً غريباً في معسكرهم هو فرانسيس أوف أسيسي أول الفرنسيسكانيين الذين سافروا إلى جهة الشرق في محاولة لكسب عقول الناس هناك، وذلك بالوعظ وإعطاء نفسه مثالاً عن التقشف لكسبها في رؤية الرب الذي نادراً ما يشارك سيوف المسيحيين في أيديهم، وطلب إذناً لزيارة السلطان، وبعد تردد سمح لبيلاغيوس القيام بذلك وبعث إلى معسكر المسلمين عبر خطوط الدفاع تحت راية الهدنة وهناك وفي كلمات ستيفن رانسيمان Runciman «شك الحراس المسلمون في الأمر بادئ ذي بدء، ثم سرعان ما قرروا أن شخصاً

مثل هذا بسيط وقذر، لا بد أن يكون مجنوناً وعاملوه باحترام مناسب لرجل فيه مس من قبل الرب»، واستقبله الكامل بلطافته البالغة، ورغم رجاء القديس له أن يصبح مسيحياً لم يفكر هذا في القيام بذلك لحظة، وبدلاً عن ذلك أصغى بأدب إلى ما قاله ضيفه وعرض عليه بعض الهدايا الرائعة التي رفضها، ثم عاد إلى المعسكر المسيحي تحت حراسة وتشريف.

في تلك السنة انخفض فيضان النيل، ومع نهاية الصيف واجهت مصر مجاعة، واستوردت طعام من أماكن أخرى، ودفع هذا الحال السلطان إلى المناشدة من أجل السلام، وقام بذلك في شهر أيلول، وعرض التخلي عن القدس وفلسطين وطبرية، وبإعادة صليب الصلبوت إذا جلا المسيحيون عن مصر، وبحسب الظواهر كان عرضاً مدهشاً، حتى أن العديد من الإفرنج كانوا في صالح قبوله في الحال، ولكن بيلاغيوس رفض حتى مجرد التفكير فيه، واستهجن مبدأ أن يأتي السلام على أساس شروط مع المسلمين، ويدو أن أيضاً تأثر ببعض النبوءات الكاذبة التي راجت على الألسن، تتوقع انتصار الحملة الصليبية، وانهيار الإسلام، وأيدته جماعات الفرسان العسكرية التي اقتنعت بعدم إمكانية الدفاع عن فلسطين أو طبرية بشكل ناجح ما لم تسلم القلاع في شرق الأردن أيضاً التي رفض الكامل بتسليمها، لأنه تعين عليه الحفاظ على الطريق بين مصر وسورية مفتوحة، والتي تمر خلال شرقي الاردن، ولذا رفض العرض وضاعت الفرصة، وإذا كان بعض الصليبيين قد شعر بمرارة خيبة الأمل، فإنهم سرعان ما نسوا استياءهم، ذلك أن دمياط سقطت أخيراً بعد يومين أو ثلاثة أيام، في 5 تشرين الثاني 1219، واستسلمت دون قتال لأن حاميتها كانت مرهقة كثيراً إلى درجة أن المدافعين توقفوا ببساطة عن نشر الرجال عن أسوارها، ودخلها الإفرنج، وكانت تلك ضربة مروعة للمصريين، وزادت آمال بيلاغيوس كثيراً إلى درجة أنه أصبح أكثر تأكداً من أن أيام العالم الإسلامي كانت معدودة، وأن القوات المناهضة للمسيحية على وشك الانهيار.

ومع ذلك لم يقوموا بعمل من ذلك القبيل، وانسحب المصريون إلى المنصورة في أعلى النيل، بينما استوطن بيلارغيوس ورجاله في دمياط، وكما كان الوضع غالباً في السابق، تشاجر الصليبيون بين بعضهم بعضاً بعد الانتصار، وضاعت سنة 1220 في أعمال الخداع والخلافات، واختلف جون أوف بريين مع بيلارغيوس حول مستقبل المدينة المحتلة، وأبحر الأول إلى عكا في حالة غضب، وتفاقم الحسد بين المجموعات المتعددة الأوطان، وزادت الحالة حدة إلى درجة أنهم كبحوا أنفسهم بصعوبة عن قتال بعضهم بعضاً دون العدو، وبعد ثمانية عشر شهراً انقضت على هذه الحال انتعشت معنويات الصليبيين قليلاً بعدما انحدرت إلى نقطة الفناء، وذلك بوصول بعض الألمان تحت قيادة الدوق لويس أوف بافاريا، وفي تموز 1221 قرر هذا وبيلارغيوس القيام بالهجوم على العدو آخر الأمر، وقاد الجيش خارج دمياط وسارا في اتجاه المصريين، وهما في حالة ثقة كاملة، ولكن النيل كان في حالة فيضان في ذلك الوقت، ووضع بيلارغيوس رجاله في موضع تعين عليه تقبل إجراءات المسلمين، في فتح قنوات لإغراق أعدائهم، واضطر بيلارغيوس أن يناشد من أجل السلام، أو أن يموت ورجاله، ومنح السلام بناء على شروط السلطان فقط، واضطر الإفرنج إلى التخلي عن دمياط في مقابل هدنة مدتها ثمانية أعوام، وإعادة الصليب الحقيقي، لكن لم يكن بالإمكان إيجاد الصليب الحقيقي، وانتهت الحملة الصليبية الخامسة بهزيمة مخزية وشائنة للصليبيين بالتراجع إلى عكا بعد إخفاقهم في إنجاز شيء مجدد.

وكان لذلك ذيول، فقد كان أشهر المتغيبين خلال الحملة كلها على مصر الإمبراطور فريدريك الثاني أوف هوهنستاوفن الذي كان قدومه متوقعاً في الغالب، ولكن تأجل مرات عديدة، وكان هذا رجلاً يعتبر خليطاً بين النورماندي والألماني، نشأ في المملكة النورماندية في جزيرة صقلية التي كانت عربية يونانية في الثقافة والروح، وفي وقت إخفاق الحملة الصليبية الخامسة، كان في الثلاثين من العمر، معتدل الطول، يميل إلى السمنة قليلاً

وذا شعر أحمر، بدأ فيه الصلع بشكل خفيف، كما كان فمه حساساً وعيونه خضراء، وقال احد المسلمين بجفاف عنه لو أنه عرض في سوق النخاسة. لكان بخس الثمن، وإذا كان غير هذا من انطباع مؤثر جسمانياً، فإنه كان يتألق ذكاء ويتحدث لغات مختلفة من الفرنسية والألمانية والإيطالية واليونانية والعربية بطلاقة، كما كان لديه معرفة جيدة في عدة مواضيع تتدرج بين الفلسفة والطب، وكان أيضاً فاسقاً وماكراً واستبدادياً، وصديقاً خواناً وعدواً خطيراً، كما كان من جماعة «لا أدري» في الدين، فقد كان نزاعاً إلى الشك الذي صعق معاصريه الورعين بعدم احترامه المبتذل للآداب الدينية، وبافتقاره الواضح إلى الإيمان الكامل دون اعتراض، وقد كان الباب الينوسنت وصياً عليه والبابا أنوريس مرشده الخاص، ومع ذلك فقد تشاجر مع الباباوات الواحد بعد الآخر، لأنه لم يكن يخفي عدم احترامه سلطتهم الروحية.

وانتظره الإفرنج في الأراضي الصليبية لأنهم علموا أنه حمل الصليب منذ سنة 1215، ولم يتمكن أحد من فهم سبب إصراره على خلق الأعذار في عدم الوفاء بيمينه، فإن الحملة إلى مصر قامت وانتهت، ولم يقم فريدريك بالإبحار إلى الشرق، ولكن في 1225 أعادت رؤيته إلى الآمال الحياة من جديد بشكل كبير حينما تزوج ابنة جون أوف بريين ذات الأربعة عشر ربيعاً، من ملكة القدس، يولندا، وكانت زوجته السابقة الأميرة الإسبانية قد ماتت قبل سنتين، وكان تحالفه الجديد نفعياً من الناحية السياسية من وجهة نظر الجميع، وقد تعززت مملكة القدس به كثيراً في حين أضاف تاجاً ملكياً إلى تلك التي سبقها وملكها، وفي حقيقة الأمر كرهت يولندا الصغيرة ذلك العمل كله وأخبرت أباها جون وهي تبكي أن زوجها الجديد أضل واحداً من أبناء عمومتها في شهر عسلهما، ولم يكن بإمكان أحد عمل شيء حول ذلك الأمر، وأمضت بقية حياتها القصيرة في بالومو، حيث أرسلها فريدريك حالما أصبحت حاملاً، وماتت هناك بعد عدة أيام من منحها ابنها الحياة، وكانت قد خدمت هدفها الموجز، ويبدو أن موتها لم يهم فريدريك كثيراً عدا أنه أضعف

إدعاء بعرش القدس، وعندما كانت حية كان حقه في الملكية دون شك أو اعتراض، لكن موتها لم يمكنه من المطالبة بالسلطة بل كوصي على الابن الذي ولدته، باعتباره الوريث الشرعي.

وجاءت نهاية نفور فريدريك اللا نهائي كما في الظاهر من الوفاء بيمينه كصليبي، بعد فترة قصيرة من موت يولندا، عندما ركب مبحراً في برنديزي مع جيش ضخم إلى الأرض المقدسة، ولكن ما كاد الأسطول يغادر المرفأ حتى تفشت الحمى على ظهر السفينة، ووقع أحد القواد التابعين للامبراطور وهو النبيل لاندغريف أوف ثورينجيا مريضاً ثم مات، ثم تلاه فريدريك حيث استسلم إلى المرض، وفي حين أمر الأسطول بمتابعة الإبحار دونه نزل في أوترانتو ولزم فراش مرضه، وكان ذلك عملاً معقولاً تماماً، ولكن عندما نقل خبر مغادرته الأسطول إلى البابا غريغوري التاسع، تأكد البابا الروماني أن الأمر لا يعدو خدعة أخرى من جانب فريدريك للتهرب من الوفاء بيمينه كصليبي، وبناء عليه حرمه كنسياً.

وفي حين أن هذا الأمر وضع الامبراطور في وضع رهيب للغاية بسبب ردة فعله، فإنه أظهر نفسه خصماً لدوداً، وأصدر حكماً أعطى الوصف الحقيقي للحقائق، موضحاً للجميع أن البابا شوه الحقيقة كي يوجد مسوغاً لإهانته، واتبع انفجاره الكلامي في الاستمرار في طريقة الأرض المقدسة حالما تحسنت صحته، رغم حقيقة أنه لم يكن بإمكان شخص محروم كنسياً الذهاب بشكل شرعي في حملة صليبية متجاهلاً بالتالي سلطة البابا والحكم المفروض من قبله، ودهش غريغوري وغضب كثيراً، ولكن لم يكن بإمكانه عمل شيء أكثر من ذلك بعد أن استعمل سلاحه الأخير.

ونزل فريدريك في عكا في السابع من شهر أيلول سنة 1228، ورحب به أمراء الأراضي الصليبية في شعور مختلط، فسر بعضهم لرؤيته من أجل القوة العسكرية الإضافية التي جلبها إلى الملكية، ولكن جماعتي الاستبارية والداوية مع رجال الدين لم يكن لديهم الكثر من التأييد ليتفقوا معه، لأنه كان رجلاً

محروماً كنسياً، ولم يكونوا وحدهم في شكوكهم الدينية. غير أن عامة الشعب رحبوا به بحرارة، وذهب شاعر دعي فريدانك في ذلك الوقت إلى اقتراح أن البابا كان على خطأ في حرمانه من السر المقدس، غير أن الشعبية لم تكن بديلاً جيداً عن القوات المدربة، وأنه بدون الجماعات العسكرية لم يكن الإمبراطورية يستطيع الاعتماد على أكثر من أحد عشر ألف رجل، وهو رقم بحد ذاته لم يكن كافياً للهجوم على المسلمين، وعليه إذا تعيين عليه تحقيق أية مكاسب، فإن ذلك سيتم بالطرق الدبلوماسية، أكثر منه عن طريق قوة السلاح.

ولحسن الحظ، كان المسلمون الذين توحدوا لإنزال الهزيمة بالحملة الصليبية الخامسة في حالة شجار مرة أخرى بين بعضهم بعضاً، وبالنتيجة تاق السلطان إلى عقد صلح مع فريدريك كما كان بارعاً لتحقيق أمر مذهل يربك ويخزي به البابا، وكانت هذه الحالة من الأمور عبارة عن إجراء تغييري للتغلب على الحركة الصليبية منذ أول أيامها، أما فكرة تعامل امبراطور محروم كنسياً في طريقة ودية مع حكام مسلمين، بينما كان البابا في روما يصلي من أجل إخفاق جهوده، فقد كانت حالة لا يمكن وصفها، أو التفكير بها في أيام غودفري أوف بويلون، بقدر فكرة سؤال الشيطان لمركز البابوية، ولكن الأسلوب الدبلوماسي وافق فريدريك أكثر من الحرب، رغم تساوي الوضع التفاوضي بين الجانبين تقريباً في الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات الحذرة، وزادت النزاعات في العالم الإسلامي سوءاً مسببة ضعف موقف السلطان، ومحسنة فرص الاستفادة لدى فريدريك، وبالنتيجة عرض الكامل في شباط 1229 شروط اتفاق سلام قبلها الامبراطور، وسلمت إليه مملكة القدس مرة أخرى وبيت لحم والناصرة وجزء كبير من الجليل وبلاد حول صيدا التي بقيت في أيدي المسلمين ولكن قبلة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس أصبحتا مقاطعتين إسلاميتين في المملكة المسيحية، وسمح للحجاج المسلمين بالقدوم الحر إليهما. وأرسل جميع أسرى الحرب إلى بلادهم ليدوم السلام فترة عشر سنوات.

وكان ذلك انتصاراً لفريدريك الذي كان محروماً كنسياً في حين كان يصلي البابا من أجل إخفاق مهمته. ولكن نجح في الفوز في إعادة الأراضي المقدسة إلى العالم المسيحي، حيث أخفق عديدون تحت صفة كاملة من القداسة، ومع بركات البابا، بالإضافة إلى ذلك أنه قد قام بذلك دون إراقة قطرة دم من المسلمين أو المسيحيين، وبعيداً عن شكره استهجن المتدينون في كلا الجانبين الاتفاقية بشدة، واتهم المسلمون المتعصبون السلطان بخيانة الإسلام، في حين ذهل المسيحيون المتحمسون لعلمهم أن موضعين مقدسين لدى المسلمين في القدس تركا في أيدي مؤيدي أعداء المسيح، وبشكل مقبول أكثر، استهجنت الاتفاقية من الناحية العسكرية في إشارة إلى عدم إمكانية التمسك بأراض محتلة جديداً لا يمكن الدفاع عن حدودها بشكل جيد، وأصبح هذا الاستهجان عالمياً تقريباً عندما أعلن فريدريك عن نيته الذهاب إلى القدس وتتويجه ملكاً هناك، لأنه لم يكن ملكاً بل ولياً للعهد، وأباً للملك الشرعي، كما أنه كان رجلاً محروماً كنسياً، وهدد بطريرك القدس بوضع المدينة تحت الحرمة إذا استقبلت الكافر الألماني غير المحتمل، وأرسل رئيس، أساقفة قيسارية إلى القدس ليرى تطبيق أوامره، وعندما وصل رئيس الأساقفة وجد فريدريك في المدينة منذ فترة يومين، وفي غياب قس لم يرضى عن تأدية المراسم، قام فريدريك بتتويج نفسه ملكاً على القدس في كنيسة الضريح المقدس بوضع التاج فوق رأسه.

وكان ذلك انتهاكاً أخيراً، رغم أنه لم يكن تاماً، وبعد تتويج نفسه استضاف فريدريك رجال حاشيته إلى مأدبة طعام دعا إليها عدداً من القادة المسلمين الذي بقوا في المدينة، وتكلم إليهم بالعربية بطلاقة مسلياً نفسه بالتأكيد، وأصر بعد الطعام على زيارة الأماكن المقدسة الإسلامية فقاده قاضي القدس في طريق عبر طريق دولو روسا إلى منطقة المعبد القديم حيث أبدى إعجابه بقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وفي عدم رغبة منه في جرح مشاعر زائره المسيحي الشهير أخبر القاضي مؤذن المسجد الأقصى ألا ينادي المؤمنين

إلى الصلاة في وقت وجود الامبراطور في القدس، ولكن فريدريك سأل عند المساء عن سبب صمت المنارات، وعندما أخبر بالسبب احتج أن هدف قدومه إلى المدينة كان من أجل سماع دعوات المسلمين إلى الصلاة، وطالب بعدم وجوب تغيير عاداتهم من أجله، وفيما يتعلق بإبراز احترامه لهم عندما رأى قساً مسيحياً تبعه إلى داخل الحرم الإسلامي تحول إليه بغضب وحذره ألا يتجاوز تلك الحدود مرة ثانية وأنه في المستقبل سيعاقب بالموت لمثل هذا التجاوز أو الإثم، وأصغى المسلمون المندهشون في صمت إليه، فإن فريدريك شخص مسيحي مختلف عنهم، ولكنهم لم يعجبوا به رغم تقديم تحياته، ولكنهم مؤمنين ومسلمين مقتنعين، لم يكن في الإمكان أن يفهموا ويعجبوا بمسيحي مؤمن ومقتنع، ولا حتى يدركوا أو يثقوا بهذا الإمبراطور الألماني الصغير السمين، ذي العيون الفاترة، والذي استخف بدينه وعبث بدينهم، دون أن يسلم به، كما لم يكن من هؤلاء أو أولئك، فما الفائدة من ذلك؟

وسرعان ما وصلت أنباء غزو جيش بابوي مقاطعة فريدريك في إيطاليا، فقرر هذا العودة إلى الوطن، وفي الأول من أيار سنة 1229 غادر الأراضي المقدسة متنقلاً إلى الميناء في عكا قبل حلول الفجر كي يتجنب انتباه الناس غير المرحبين به في المدينة الذين تعلموا أن يشمئزوا منه في ذلك الوقت، ولكن شخصاً نشر رحيله في المدينة وفي شارع الجزارين الذي تعين عليه عبوره، وكان مزدحماً بالناس الذين أطلقوا أصوات استهجان ورجموه بقطع من الروث وكتل من الفضلات، وبعد أن سمع بعض البارونات ما اعتقدوا أن يصبح شغباً بالهبوط إلى مسرح الأحداث لاستعادة النظام، ولكن فريدريك علم أن وراء وجوههم الرقيقة وابتساماتهم المهذبة كراهيتهم له، وعندما ودعوه وداعاً لطيفاً قام بشتمهم وجهاً إلى وجه.

وبرهنت أعماله أنها سريعة الزوال، ولكن عندما وصل إلى إيطاليا كان لديه اقتناع بإلحاق هزيمة منكرة بالجيش البابوي، وإجبار البابا على عقد سلام فعلي بالشروط التي يرغبها، فقد كان بارعاً بما فيه الكفاية ليسمح لغريغوري

بحفظ ماء وجهه، ومع ذلك كانت صياغة معاهدة سان جرمانو التي وقعها الاثنان محترمة بشكل مدروس للجلالة البابوية، وفي المقابل رفع غريغوري حكمه بحرمانه كنسياً، وهكذا عاد المستبد الألماني اللامع والغريب وغير المستساغ إلى حد ما، الذي لعنته الكنيسة لتسلمه القدس، من أيدي المسلمين، عاد ورحب بعودته إلى صدرها الفسيح مرة أخرى على أنه «ابنها المحبوب»، واحتفل فريدريك بعودته إلى حالة العفو وذلك بإجراء قداس عظيم للشكر في الكاتدرائية، ألقى الموعظة فيه نيكولاس أوف باري الذي مجد الإمبراطور وامتدحه كرجل مقدس، وأعرب عن رأيه بوجوب معاملته ككائن فوق أي شيء ذي خاصية مشابهة للرب، وتشير الدلائل إلى أن فريدريك وافقه على ذلك بشكل عام.